المنار
١٣١٥

مصر في يوم السبت ٢٣ رمضان سنة ١٣١٧ * ٢٧ يناير (كانون ٢) سنة ١٩٠٠

الزكاة والتمدن

٣

بينا في مقالة المنار الماضي ان الزكاة ركن من أركان الدين والمدنية وفضيلة من اكمل الفضائل الانسانية وان تاركها بعيد من الدين والتمدن والانسانية جميعا وذحضنا شبهة المخالين في منعها من المتدينين وندحض في هذه المقالة شبهة من يذمها أو يذم السخاء من المتمدنين فنقول

من الافرنج طائفة تذم السخاء والبذل محتجة بان اعطاء المال بدون مقابلة عمل يعلّم الناس البطالة والكسل والاعتماد على الناس دون أنفسهم في قضاء حاجهم والوصول الى مطالبهم ويكثر فيهم التسول والشحاذة وما فشت هذه الاخلاق والسجايا في أمة الا ورمتها بالفقر والفاقة والذل والمهانة وجعلتها وراء الامم كلها. وأنت ترى ان حجة هؤلاء ناهضة قوية ولذلك فشت أفكارهم في أوربا فجعلت قلوب أهلها قاسية على بني جنسهم لا يرحمون فقيراً ولا يواسون محتاجا حتى قيل ان الفقراء يموتون جوعا في أسواق أغنى مدائن الارض كلوندره ولا يرق لهم أحد. واذا عذل عقلاؤهم أو فلاسفتهم في هذه القساوة الوحشية يقولون ان موت بعض الافراد أخف ضررا على

المدنية من فشو الامراض الروحية التي تتولد من البذل ومواساة هؤلاء المحتاجين وهي ما ذكرناه آنفا. هذا ملخص مذهب هؤلاء ونحن نجيب عنه بالنسبة للزكاة الشرعية من وجوه

(١) يعارض مفاسد البذل المذكورة مفاسد أعظم منها ضررا في المدنية وأشد خطرا على الانسانية وهي مفاسد الاشتراكية والفوضوية التي ليس لها منشأ الا عدم رضى الاشتراكيين بجعل المال دولة بين الاغنياء بحيث يقاسي السواد الاعظم من أبناء الانسان متاعب الفقر وشقاء العوز حتى يموت الكثير منهم جوعا ويتمتع العدد الاقل بجميع صنوف النعيم ويستعبد سائر العالمين بل يحبس في سجون من الحديد (صناديق الاموال) جيوش الدراهم والدنانير يمنعها بذلك عن صدّ غارات جيوش الفقر والفاقة التي تفتك بالنوع البشري أشد الفتك اما بنفسها واما بما يتبعها من جيوش جراثيم الامراض والاوبئة الخفية التي لايدافع جانّها الا بجنان من الذهب أو الفضة (*) وليس فقر كل الفقراء وعوزهم من كسلهم وبطالتهم فترد في حقهم شبهة مانعي البذل وذامي السخاء ولكن استعداد أفراد الانسان متفاوت والبيئة التي يعيش فيها والقوم الذين يتربى بينهم الاثر الاكبر في أخلاقه ومعارفه التي هي مناشئ أعماله الكسبية وغيرها ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون وكان ربك قديرا ، فالله تعالى يبتلي الغني بالفقير والفقير بالغني كما يمتحن القوي بالضعيف وبالعكس على نحو ما بيناه في المقالة السابقة وبسطة الرزق تكاد تكون بالحظ والجد اكثر مما هي بالحيلة والكد

(*) الجنان اسم جمع للجن وهو كل ما استتر عن الحواس كالملائكة والشياطين ومنه ميكروب الامراض والجنان بالضم الترس

يشقى أناس ويشقى آخرون بهم ... ويسعد الله أقواماً بأقوام
وليس رزق الفتى من فضل حيلته ... لكن جدود وأرزاق بأقسام
كالصيد يحرمه الرامي المجيد وقد ... يرمي فيحرزه من ليس بالرامي

وما أنا من يقول بالجد والحظ على اطلاقه الذي يطوف في الاذهان ويجري على كل لسان. بل أقول لكل شيء سبب. وللانسان ماسعى وكسب. له ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ولكن طرق الكسب والثروة منها مايعرفه الانسان ومنها مايجهله وبعض مايعرفه يمكن ان يناله بسعيه وبعضه يعلو عن تناول السعي ويتعاصى على الكسب. ولا تكون طبقات الناس أو أفرادهم متقاربين في معرفة الاسباب والتمكن منها الا اذا أمكن توحيد التربية والتعليم وتعميمها في العالم الانساني كله وما أبعدها غاية وأقصاها رغبية !! فظهر بهذا علة اختلاف الناس المشهود في المعارف والسجايا والاعمال والمكاسب اجمالا (ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك) وظهر به وبماقبله ان للاشتراكيين بعض العذر في القيام على الاغنياء الذين لا يجعلون في أموالهم حقا معلوما للبائس الفقير والعاجز الضعيف الذين ليس لهم مايكفيهم وان ينتهي بهم الامر الى القيام على الحكومة التي لاتلزم الناس بالمساواة الزاما كما هو شأن الفوضويين . نعم ان القوم أفرطوا فخابوا ومن الاعتدال ان يطلبوا المواساة بدلا من المساواة التي لاسبيل اليها . ويعلم المتمدنون من المسلمين ان حكماء أوربا وحكامها في حيرة من تلافي شرور الاشتراكيين والفوضويين ومعالجة هذا الداء الاجتماعي الدوي وما علاجه الا الدين الاسلامي الذي يفرض الزكاة ويحث على المواساة ويفرض على الآخذين به ان يرضوا بما قسم الله لهم بعد السعي بحسب الطاقة

(٢) ان فضلاء الاوربيين وعقلاءهم الذين لم ينسلخوا من المزايا الانسانية الجميلة ولم يحرموا من الشفقة والرأفة على أبناء جنسهم بالمرة قد خصصوا جزءاً من أموالهم لبناء المستشفيات لمعالجة مرضى الفقراء ولغير ذلك من أعمال البر ولولا هؤلاء لكانت المدنية الاوربية شر مدنية أخرجت للناس ولكان غلو الاشتراكيين والفوضويين تجاوز الحدود قدمرها شر تدمير وجعل مصيرها بئس المصير. واننا نرى اللابسين لباس المدنية الاوربية من المسلمين لا يبذلون شيئا من فضول أموالهم على اعمال البر التي ينفق عليها الاوربيون كالمستشفيات والمدارس والمكاتب وتنشيط المخترعين والمكتشفين ـ حرموا فضائل المشرقين واستأثروا برذائل المغربين (ويحسبون انهم على شيء ألا انهم هم الكاذبون)

(٣) اذا كان السويديون من الافرنج يتبجحون ايتاء الفقراء والمساكين العاجزين عن كسب يكفيهم فلا ينبغي ان يلتفت الى قولهم لان احتجاجهم بتعليم الناس البطالة والكسل انما يأتي اذا كانت الشريعة تعطي من يقدر على الكسب ولا يكتسب اخلادا الى الكسل والبطالة واعتمادا على أوساخ الناس ولكن الشريعة تمنع اعطاء مثل هذا كما تمنع اعطاء العاجز فوق كفايته وتسمي من يقدر على كسب يكفيه غنياً ولذلك قال الامام الغزالي كغيره (وقد لا يملك الا فأسا وحبلا وهو غني) وجبت أيضا في حكم الغني كل فقير عاجز له قريب يمونه وينفق عليه ومع هذا كله حرمت السؤال والشحاذة على غير المضطر واعتبرت أموال الزكاة والصدقات من أوساخ الناس وقال النبي عليه الصلاة والسلام (اليد العليا خير من اليد السفلى)

فقد رأيت ان هذا الدين القويم شرع للفقراء والمساكين ما فرض من مال الزكاة مع أشد الاحتراس من مضار ما يألفه الانسان على غير كسبه

ونتائج عمله. ومن ذلك انها حرمت الصدقة على آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم لانهم ينبغي ان يكونوا قدوة للناس في شرف النفس وعزتها وما أكل أوساخ الناس الاذل وصغار. وقد غفل المسلمون لاسيما الغالون في تعظيم أهل البيت عن هذا فأغدقوا عليهم الانعام حتى جعلوهم عالة على الناس في عامة شؤونهم وأفسدوا أخلاق الجم الغفير منهم

(٤) اذا فرضنا ان للسويليين وجها في منع اعطاء الفقير والمسكين ومن في معناهما كالغارم وابن السبيل مطلقا فهل نقول ان لهم وجها في منع تجهيز المتطوعين لحماية البلاد ودفع الاعداء عنها ومنع فك الرقاب من العبودية أو الاسر؟ كلا اننا لم نسمع ان أحدا في أوربا يذم هذه المصارف بل نراهم يجمعون الاموال الطائلة لتنفق في هذه الوجوه. وقد جعلوا السعي في تحرير الارقاء ركنا من أركان التمدن بل وجعلوه عملا مخصوصا من أهم أعمال الحكومة

وخلاصة القول وزبدته ان الزكاة ركن من أهم أركان الدين والمدنية الحقة وانه ليس في شيء من مصارفه الثمانية مغمز لنامز ولا مضرة تخشى مغبتها وان هؤلاء المسلمين الجغرافيين الذين يمنعونها لروح البخل والشح الخبيث الذي لابس نفوسهم الشريرة ماشموا رائحة التمدن الحقيقي ولا استنشقوا عرف الاسلام العطر ويوشك ان يجيء يوم من الايام تهدي فيه الاوربيين معارفهم الاجتماعية الى اقامة هذا الركن المدني الركين ثم اقامة غيره من اركان الاسلام فيضطر المقلدون لهم في مساويهم من متمدنينا الى تقليدهم في المحاسن والفضائل التي يأخذونها من دينهم فانهم لصغر نفوسهم لايكونون الا مقلدين و (لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون)